الباب الأول

مكانة المرأة قبل الإسلام

تمهيد

قبل الدخول إلىٰ الملف الواسع الذي اتُّهم من خلاله الإسلام : بأنه أهان المرأة ، وأنه صنّفها بعد الرجال ، و . . . !!

لا بدّ من استعراضٍ سريع لحالة المرأة في العصور التي سبقت عهد الإسلام ، وهذا الموضوع متشعّب واوسع ، لكن نكتفي بتقديم لمحةٍ عن كل عصر . . .

* * *

الفصل الأول

المرأة في العصر الفرعوني[1]

من خلال قراءة المصادر والمراجع التي اهتمت بهذا الموضوع ، يتبين لنا أن المرأة أخذت غالبية حقوقها ، بل وكادت تساوي الرجل في كل الأمور :

(كان الزوج يدفع مهراً لزوجته ، ويشترط في عقد الزواج أنه إذا تزوج بغيرها في حياتها أو أبغضها أعطاها مبلغاً آخر من المال زيادة على المهر ، وصارت جميع أمواله الحاضرة والمستقبلية تأميناً لها ، وضماناً للوفاء بعهده ، وكانت المرأة تتعهد لزوجها إذا أبغضته أو أحبّت غيره ردّت له مهره وتنازلت عن جميع حقوقها) .

(وجاء في وصايا ذلك العهد : لا تكن فظاً غليظ القلب في معاملتك لزوجتك) .

(ويوصي حكيم ابنه ـ في ذلك العهد ـ فيقول : أحب زوجتك ، وأشبع بطنها ، وأكس ظهرها ، واشرح صدرها طوال حياتها معك) .

---

(١) من أهم مراجع هذا الموضوع :

الزواج والطلاق في جميع الأديان للشيخ عبد الله المراغي ، وفلسفة وتاريخ النظم الاجتماعية والقانونية للدكتور محمود السقا ، والمرأة عبر التاريخ لحسن محمد جوهر ، والمرأة في جميع الأديان والعصور لمحمد عبد المقصود .

(ومن النصائح التي كان الحكماء يسددونها للشعب : كن لين العريكة مع زوجتك وعاملها بالعدل والإحسان والرحمة ، ولا تدع نشوة القوة تستبد بك في معاملتك إياها ، فاللين أفعل في قلوب النساء من السحر ، واغمر زوجتك بالحنان والعطف وأسبغ علىٰ حياتها شمس حمايتك القوية) .

وكان للمرأة أن ترث ، وأن تقوم بمزاولة الأعمال خارج بيتها ، حيث كانت تعمل في الحقول ، كما ظهرت في رسوم عصور الأسرة الخامسة لامرأة تدير دفة سفينة ، وكانت تذهب إلىٰ الأسواق ، وتمارس كافة أنواع التجارة ، وكان لها أن تملك وأن تتولىٰ أمر أسرتها في غياب زوجها .

(وكانت المرأة المصرية قادرة علىٰ إجراء كافة التصرفات القانونية دون إذن وليّها ـ سواء كان والدها أو زوجها ـ إذا كانت متزوجة ، وكان لها ملكيتها الخاصة ، ويمكنها التعاقد باسمها ، وكانت حريتها في التعاقد مطلقة ، وكانت كاملة الأهلية ، ولها الحق في اختيار من تشاء زوجاً لها فلا تكره علىٰ الزواج بدون رغبتها ، وكانت محبوبة من زوجها وتلقّب (بنت بر) أي : ربة بيت) .

(وكان المصريون يعنون بتعليم الفتيات الصغيرات العقائد الدينية وآداب السلوك ، ولم يكن من الغريب أن تتولىٰ المرأة في مصر الفرعونية مناصب عظيمة مثل القاضيات والكاهنات والملكات ، ومن النساء اللاتي تولين منصب الملكة في مصر الفرعونية :

١ـ **مرتين نبت** : حكمت مصر في أواخر الأسرة الأولىٰ بعد اضطرابات سادت البلاد ، وأعادت النظام والأمن لمصر .

٢ـ **ختكاوس** : ولقبت بملكة مصر العليا والسفلىٰ ، وهي من الأسرة الرابعة .

٣ـ **سبك نفرو** : حكمت (٣) سنوات و(١٠) شهور ، وهي من الأسرة الثانية عشرة .

٤ـ **حتشبسوت** : أشهر ملكات مصر ، وهي من الأسرة الثامنة عشرة وحكمت مصر (٣٢) سنة .

٥ـ **أمحتب** : حملت أعباء البلاد بعد مقتل زوجها (سفن رع) ودفعت ابنها (أحمس) لطرد الهكسوس من مصر .

٦ـ **تي** : وهي من عامة الشعب ، وكانت زوجة الملك امنحتب الثالث ، حاولت أن توفق بين ابنها (أخناتون) وبين كهنة معبد آمون ، لكن إصرار (أخناتون) علىٰ عبادة الإلٰه الواحد أدىٰ إلىٰ وقوع الصراع بين الجانبين . . .) .

* * *

الفصل الثاني

المرأة عند البابليين والآشوريين[1]

في بلاد العراق كان وضع المرأة مضطرباً ومتناقضاً : حيث أعطاها القانون ـ عندهم ـ حقوقاً تساوي حقوق الرجل ، وأعطاها نصيباً مثل الرجل في الميراث . . . لكن من جانب آخر حكم عليها بالموت غرقاً إذا أقدمت علىٰ الطلاق ! ! !

كذلك فلها الحق في مزاولة أي نوع من أنواع التجارة و . . . في مالها ، ولها الحق في اختيار زوجها و . . . لكن للرجل الحق أن يبيعها إذا ثبت له خيانتها ، أو أن يستبقيها عنده كجارية ! !

كذلك فللرجل الحق في أن يرهن زوجته عند دائنه مدة لا تتجاوز ثلاث سنوات وفاءً لدينه ! !

وفي شريعة حمورابي التي اشتهرت بها بابل كانت المرأة تُحسب في عداد المواشي المملوكة ، وكانت هذه الشريعة تفرض علىٰ من قتل بنتاً لرجل آخر أن يسلمه ابنته ليقتلها أو يملكها إذا شاء أن يعفو عنها ! !

ولا يحق للزوجة أن ترث زوجها بعد موته لا من ماله المنقول ولا من غير المنقول ، وكان الطلاق سهلاً علىٰ الرجل .

---

(١) بتصرف واختصار من : المرأة في جميع الأديان والعصور .

أما إذا كانت المرأة ناشزاً مهملة لشؤون بيتها وتربية أولادها فإنها تستحق أن تُلقىٰ في الماء .

وكانت الإناث في شريعة حمورابي لا يرثن آباءهن ، ولم يكن لهن نصيب معلوم في تركته ، وذلك لأن التركة كانت للذكور وحدهم ، الذين اعتبروا امتداداً لشخصية آبائهم .

الفصل الثالث

المرأة عند الهنود والصينيين واليابانيين والروس[1]

دانت الهند لشريعة (مانو) ، وكان للمرأة موقع ومكانة منحطة في تلك الشرائع ، حيث اعتبرها (مانو) جسداً يوشك أن لا يكون لها روح ، وليس لها حق مستقل ، فهي تتبع أباها أو زوجها أو ابنها ، وفي حالة وفاة الأب أو الزوج وجب عليها أن تنتمي إلىٰ رجل من أقارب زوجها في النسب . . .

واعبترها (مانو) مخلوقاً نجساً يجب التحرز منه ، وفرض عليها أن لا تهجر زوجها في أي حال حتىٰ لو أصيب بالجنون أو الشلل ! ! .

واعتبر (مانو) : أن الزوجة الوفية ينبغي أن تخدم سيدها كما لو كان إلٰهاً ، وأن لا تأتي بشيء يؤلمه مهما تكن حالته ، حتىٰ وإن خلا من كل الفضائل ! !

وأما الزوجة التي تعصي زوجها فمآلها أن تتقمص روحها جسد ابن آوىٰ في خلقها التالي ! !

---

(١) للتوسع في هذا البحث يراجع : الدين وقوانين الأحوال الشخصية للمستشار علي منصور ، والمرأة في التصور الإسلامي لعبد المتعال الجبري ، والمرأة (مركزها وأثرها في التاريخ) : راي ستراتش . . .

كذلك فمن حق الرجل أن يطلّق زوجته لخيانتها الزوجية ، ولكن الزوجة لا تستطيع أن تطلق زوجها لأي سبب من الأسباب ، وفي مقدور الزوج أن يتزوج علىٰ زوجته إذا ما شربت خمراً أو مرضت أو شقت عليه عصا الطاعة أو كانت مسرفة أو مشاكسة!!

نعم ، لقد كانت المرأة الهندية تخاطب زوجها في خشوع قائلةً : يا مولاي ويا سيدي . . ويا إلٰهي!!

بل والأغرب من ذلك ، أن المرأة الهندية كانت تحرم من حق الحياة بعد وفاة زوجها ، ذلك لأنهم اعتقدوا بأنها لا طاقة لها علىٰ الحياة بعد موت زوجها ، لذا كانوا يقيدونها بالسلاسل والأغلال ، وكانوا يحرقونها مع زوجها في أتون واحد!!

وأما (بوذا) فله آراء عجيبة في المرأة ، من ذلك قوله :

خير للإنسان العاقل أن يقع بين فكي نمر مفترس أو تحت سيف الجلاد من أن يُساكن امرأة ويحرّك من نفسه الشهوة!!

هذه حال المرأة في بلاد الهند ، فهل كان حالها في بلاد الصين أحسن أم أسوء ؟! :

عرف الصينيون نظام الطبقية بين الرجال والنساء ، إلىٰ حد أن الأب ما أن يُخبر بأن زوجه قد ولدت له مولوداً أنثىٰ ، حتىٰ كان يسارع إلىٰ حمل هذا المولود إلىٰ السوق باحثاً عمن يشتريه بأبخس الأثمان ، فإن لم يجد شاري نادىٰ في السوق أنه يريد أن يهب هذا المولود لمن شاء ، فإن لم يحالفه الحظ في ذلك ، حمل هذا المولود إلىٰ مكان مهجور فخنقه أو أغرقه أو دفنه في التراب . . . وهو حيّ!!

﴿ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴾ [التكوير : ٨-٩] .

وقد وجد في كتبهم أن المرأة كالمياه المؤلمة التي تغسل المجتمع

أو تكنسه من السعادة والمال ، وهي شر يستبقيه الرجل بمحض إرادته ويتخلص منه بالطريقة التي يرتضيها ولو بيعاً كبيع الرقيق!!

وكان سلطان الأب مطلقاً في جميع الأمور في عهد (كونفوشيوس) ، فكان في وسعه أن يبيع زوجته وأولاده ليكونوا عبيداً ، وكان الرجل يتناول طعامه بمفرده ، لا يدعو إليه زوجته ولا أبناءه ، وكان من حق الزوج أن يطلب من زوجته أن لا تتزوج بعده ، وكان يطلب منها أن تحرق نفسها عند موته تكريماً له ، وظلت حوادث حرق الزوجات تقع في الصين إلىٰ أواخر القرن التاسع عشر!!

إذن كيف كان حال المرأة اليابانية ؟

منذ نعومة أظفار الفتاة هناك ، كانوا يعلمونها الطاعة العمياء : لأبيها قبل الزواج ، ولزوجها عندما تتزوج ، ولابنها الأكبر بعد موت زوجها!!

وعرف المجتمع الياباني عادات غريبة منها : أن الرجل له الحق في أن يبيع بناته في سوق النخاسة أو الدعارة!!

وكان للرجل حق في تطليقها إذا رفعت صوتها!! وكان له حق تطليقها إذا كانت عقيمة ، وكان الرجل إذا تحدث عن زوجته يقول : إنها الشيء الذي يسكن المكان الخلفي من المنزل ـ أي يخجل أن يقول إنها زوجه ـ!!

وإذا مات زوجها ، فكانت العادة تقضي بأن تظهر المرأة بمظاهر البؤس ، فتحلق رأسها ، وتلبس الملابس الكئيبة ، ولذلك قيل : إن اليابان جنة الرجال .

وأما مكانة المرأة في بلاد الروس : فليست أحسن حالاً مما سبق ، بل لقد انتشرت الدعارة عندهم إلىٰ حد أن الرجال كانوا يعاشرون النساء جماعات أمام بعضهم البعض!!

* * *

الفصل الرابع

المرأة في بلاد فارس واليونان والروم[1]

كان علىٰ الرجل في بلاد فارس إذا وُلد له مولود ذكر عليه أن يقدم القرابين شكراً لله ضمن مراسيم دينية معينة وكانت توزع الهدايا والأعطيات والصدقات ، أما إذا كان المولود أنثىٰ فليس عليه من ذلك أي شيء!!

ولم تكن المرأة تملك حق اختيار زوجها ، بل كان الأب يزوجها بمن يشاء ، دون أخذ رأيها ، كما كان الحق للرجل أن يتنازل عن زوجته إلىٰ رجل آخر!

ـ وأما مكانتها عند الرومان :

فشبيهة بمكانتها عند الهنود ، فالزوج له الحق في أن يطلقها أو يعاقبها أو يبيعها!! وهي في نظرهم سلعة رخيصة يملكها الرجل ويتصرف بها كما يشاء!!

بل والأغرب من ذلك أن حكماءهم و . . . عقدوا اجتماعاً في مجمع روما تناقشوا فيه في وضع المرأة ، وبالتالي وصلوا إلىٰ قرار مفاده : المرأة كائن لا نفس له ، وهي لن ترث الحياة الأخروية ، وأنها رجس ،

---

(١) المراجع السابقة نفسها ، إضافة إلىٰ : حق الزوج علىٰ زوجته وحق الزوجة علىٰ زوجها لطه عبد الله العفيفي .

ويجب أن لا تأكل اللحم ، وألا تضحك ، وألا تتكلم ، وعليها أن تمضي جميع أوقاتها في الخدمة والخضوع!!

وأصدروا قراراً يحرِّم علىٰ المرأة أن تملك أكثر من نصف أوقية من الذهب!!

ـ إذن فماذا عن مكانتها عند اليونان ؟

لم يختلف الأمر بالنسبة لما سبق : فهي في نظرهم قاصر ، لا يحق لها التصرف في أي شيء ، وخضعت لنظام الوصاية ـ من قبل أبيها أو زوجها أو ابنها الأكبر ـ ، وهي لا ترث زوجها أو أباها!

وأما فلاسفتهم فلم يكونوا أحسن حالاً بالنسبة إلىٰ المرأة ، فهذا (أرسطو) يقول : المرأة رجل غير كامل وقد تركتها الطبيعة في الدرك الأسفل من سُلّم الخلقة .

ويقول : إن المرأة للرجل كالعبد للسيد ، والعامل للعالم ، والبربري لليوناني ، وإن الرجل أعلىٰ منزلة من المرأة!!

وأما (أفلاطون) فكان يرىٰ في مدينته الفاضلة أن النساء ذوات الأجسام السليمة الخاليات من العيوب البدنية متاعاً مشاعاً للرجال الأصحاء الأقوياء لإنجاب أطفال أصحاء ، وفي النهاية فإن المرأة رجس من الشيطان بعيدة عن رحمة الله لحملها خطيئة أمها العليا حواء!!

* * *

الفصل الخامس

المرأة عند اليهود وعند النصارى

كان لليهود نظرة خاصة للمرأة ، فهي الأداة التي يتخذها الشيطان وسيلة لإيقاع الإنسان في الشر ، وبالتالي فهي أشد من الموت!!

كذلك فهي نجسة في المحيض ، ويجب أن تُحبس في البيت ، لأن كل ما تلمسه من طعام أو كساء أو إنسان أو حيوان ينجس!!

وكذلك كل ما يفعله الرجل من أعمال لا أخلاقية فإثمه علىٰ المرأة ، وبالتالي فهي ملعونة لتسببها في إغواء آدم ـ عليه السلام ـ وإخراجه من الجنة!!

والمخيف في الأمر ، أن اليهود زوّروا ولفّقوا التهم علىٰ كل الشعوب و. . . بل حتىٰ علىٰ الأنبياء ، كل ذلك من أجل خدمة مصالحهم وتحقيق شعارهم (اليهود شعب الله المختار!!) وبالتالي فالمرأة عندهم لها دور رهيب في الإغواء ، و. . . من أجل تحقيق المصلحة العليا لبني قومها!!

ـ فمثلاً في سفر التكوين[1] يدّعي واضعه ـ وهو كذاب أشر ـ أن النبي لوط ـ عليه السلام ـ رُزق بولدين ، هما موآب : أبو الموآبيين ، وعمّي : أبو بني عمّون .

---

(١) الإصحاح ١٩ ص ٣٣ـ٣٨ .

أما الوالدتان فهما ابنتاه اللتان سقتاه خمراً لكي تحملا منه وتلدا رأس الموآبيين ، ورأس العمونيين ! ![1] .

إنها المرأة . . وهي أنجح سلاح لإنجاح مبدأ الغاية تبرر الوسيلة ، هاهو كتاب بروتوكولات حكماء (صهيون) يبرر ذلك الأمر :

(يسعىٰ اليهود لهدم الحكومات في كل الأقطار والاستعاضة عنها بحكومة ملكية استبدادية يهودية ، ويهيئون كل الوسائل لهدم الحكومات لا سيما الملكية منها ، ومن هذه الوسائل إغراء الملوك باضطهاد الشعوب من جهة وإغراء الشعوب بالتمرد علىٰ الملوك ، متوسلين لذلك بنشر مبادىء الحرية والمساواة ونحوها مع تفسيرها تفسيراً خاصاً يؤذي الجانبين ، وبمحاولة إبقاء كل من قوة الحكومة وقوة الشعب متعادلتين ، وإبقاء كل منهما في توجس وخوف دائم من الأخرىٰ ، وإفساد الحكام وزعماء الشعوب ، ومحاربة كل ذكاء يظهر بين الأمميين (غير اليهود) ، مع الاستعانة علىٰ تحقيق ذلك كله بالنساء والمال والمناصب والمكايد . . . وما إلىٰ ذلك من وسائل الفتنة ، ويكون قصر الحكومة الإسرائيلية أولاً ، ثم تستقر إلىٰ الأبد في روما عاصمة الإمبراطورية

---

(١) ومن تلك القصص التي في التوراة : قصة أبرام التوراتي الذي قدّم زوجته ـ ساراي ـ لفرعون مصر ليحقق الغاية المنشودة : (سفر التكوين ، الإصحاح ١٢/ ١٤ـ١٧) . وكذلك قصة لابان وابن أخته يعقوب وزوجه : (سفر التكوين ، الإصحاح ، ٢٨/ ١ـ٢) وكذلك قصة يعقوب ـ عليه السلام ـ وابنته دينة وأهل شكيم : (سفر التكوين ، ٣٤/ ٢٥ـ٢٩) ، وكذلك قصة روابين ـ ابن يعقوب ـ مع بلهة : (سفر التكوين ، ٣٥/ ٢١ـ٢٢) ، وكذلك قصة يهوذا ابن يعقوب مع ثامار(سفر التكوين ، الإصحاح ٣٨/ ١٢ـ١٩) ، وكذلك قصص كثيرة حول مضاجعة المحارم في أسفار التوراة (سفر راعوث : ٣/ ٦ـ٧) و(سفر صموئيل الثاني : ٣/ ٨) و(سفر اللاويين : ٦٢/ ٢ـ٨) . . . !!

الرومانية قديماً.. وإفساد الشبان والقضاء علىٰ الضمائر والأديان والقوميات ونظام الأسر ، وإغراء الناس بالشهوات البهيمية الضارة ، وإشاعة الرذيلة والانحلال ، حتىٰ تستنزف قوىٰ الأمميين استنزافاً ، فلا تجد مفراً من القذف بأنفسها تحت أقدام اليهود!!)[1] .

وهذا الأمر هو السلاح نفسه الذي يحمله اليهود لمحاربة أعدائهم من كل الشعوب :

(إن صناعة السينما في أمريكا هي يهودية بأكملها ، ويتحكمون فيها دون أن ينازعهم في ذلك أحد ، ويطردون كل من لا ينتمي إليهم ، وجميع العاملين فيها هم إما من اليهود أو صنائعهم ، وهوليوود تعتبر اليوم سدوم العصر الحديث ، حيث تنخر الفضيلة وتنتشر الرذيلة ، وتسترخص الأعراض ، وتنهب الأموال دون رادع أو وازع ، والمشرفون عليها يرغمون كل من يعمل لديهم علىٰ تعميم ونشر مخططهم الإجرامي تحت أستار خادعة كاذبة ، وبهذه الأسباب القذرة أفسدوا الأخلاق في البلاد ، وقضوا علىٰ مشاعر الرجولة والإحساس وعلىٰ المثل العليا لدىٰ الأجيال الأمريكية ، فأوقفوا هذه الصناعة المجرمة لأنها أضحت أعظم سلاح يملكه اليهود لنشر دعاياتهم المضللة الفاسدة)[2] .

ولقد صدق الله تعالىٰ حين وصفهم في القرآن الكريم بقوله :

﴿ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيّٗا ﴾ [مريم : ٥٩] .

ـ وأما مكانة المرأة عند المسحيين فقد أخذت منحىً آخر ، فللمرأة في

---

(١) وهو من ترجمة السيد محمد التونسي : ٣١ـ٣٣ .
(٢) المفسدون في الأرض لسليمان ناجي : ٣٢٨ .

الإنجيل صورتان متعاكستان ، صورة تمثّل الخير واسمها مريم ، وصورة تمثّل الشر ، وهي صورة المرأة الخاطئة . . .

فأما مريم فهي الأم والعذراء الأولىٰ في التاريخ البشري ، وهي أم الطفل البشارة ، تلك المرأة التي أخبرتها الملائكة أن الله يبشرها بكلمة منه : (مباركة أنت في النساء ، ستحبلين وتلدين ابناً وتسميه يسوع)[1]

وأما المرأة الخاطئة التي وقعت نتيجة إغواء الشيطان والنفس والملذات والشهوات فلم يكن موقف المسيح ـ عليه السلام ـ منها كما كان موقف من قبله ، إنما نظر إلىٰ الخطيئة نظرة أخرىٰ حققت انقلاباً كاملاً في المفاهيم السائدة في تلك الأيام :

(جيء بامرأة زانية ، يحفّ بها الرجال وعابرو السبيل ، إلىٰ السيد المسيح وقيل له : هذه المرأة أُمسكت وهي تزني ، وموسىٰ في الناموس أوصانا إنَّ مثل هذه ترجم . . . وكانت الخاطئة ترتجف خوفاً ، وعيون الحاضرين تسوط[2] جسدها بنظرات حاقدة ، كنظرات الذئاب الجائعة ، فقال لهم السيد المسيح : من كان منكم بلا خطيئة فليرمها أولاً بحجر ، فذهبوا واحداً وراء الآخر ، وبقي يسوع معها ، فقال لها : أنا لا أدينك ، اذهبي ولا تخطئي)[3] .

لكن مع كل هذا ، نجد تعليمات صارمة ـ في الإنجيل ـ تؤكد علىٰ الخط الرسالي الذي جاء من عند الله ، هاهو المسيح يوصي حواريه وأتباعه فيقول :

(قد سمعتم أنه قيل للقدماء : لا تزنِ ، وأما أنا فأقول لكم : إن كل

---

(١) إنجيل لوقا : الإصحاح الأول ص ٩٠ .

(٢) أي : ينظرون إليها نظرات حادة ، تكاد تقتلها .

(٣) إنجيل يوحنا : الإصحاح الثامن ص ١٦١ .

من ينظر إلىٰ المرأة ليشتهيها ، فقد زنىٰ بها في قلبه)[1] .

وأما صلاة المرأة في بيوت العبادة فيجب أن تكون علىٰ هذه الحالة :

لتصمت نساؤكم في الكنائس لأنه ليس مأذوناً لهنّ أن يتكلمن ـ بل يخضعن ـ ولكن إن كنّ يردن أن يتعلمن شيئاً فليسألن رجالهن في البيت لأنه قبيح بالنساء أن تتكلم في كنيسة . . . !![2] .

وأما تعليمها للآخريين أو أن تكون مسؤولة عنهم ، فهذا أمر غير مسموح فيه : إن النساء يزيِّن ذواتهن بلباس الحشمة مع ورع وتعقل ، لا بضفائر أو ذهب أو لآلىء أو ملابس كثيرة الثمن ، لتتعلم المرأة بسكوت في كل خضوع ، ولكن لست آذن للمرأة أن تعلِّم ولا تتسلط علىٰ الرجل ، لأن آدم جُبل أولاً ثم حواء ، وآدم لم يغوَ ولكن المرأة أغويت[3] .

إذن : نستطيع تلخيص مكانة المرأة في المسيحية بما يلي[4] :

ـ يقول القديس (ترنوليان) عن المرأة : إنها مدخل للشيطان إلىٰ نفس الإنسان ، وهي ناقضة لنواميس الله!!

ـ ويقول القديس (كريستوم) عنها : إنها شر لا بدّ منه ، وإغواء طبيعي وكارثة مرغوب فيها وخطر منزلي ، وفتنة مهلكة وشر عليه طلاء!!

---

(١) إنجيل متىٰ : الإصحاح الخامس ص ٩ .

(٢) رسالة بولس إلىٰ أهل رومية : الإصحاح السابع ص ٢٨٠ من إنجيل مرقس .

(٣) الإصحاح الثاني : ص ٣٣٩ .

(٤) بتصرف واختصار من : المرأة في جميع الأديان ، وللعلم : في عام ١٩٦٧م صدر قرار من البرلمان الاسكوتلاندي يقضي بأن المرأة لا يجوز أن تُمنح أي سلطة علىٰ أي شيء من الأشياء ، وكذلك البرلمان الإنجليزي أصدر قراراً في عهد هنري الثامن ـ ملكها ـ يحظِّر علىٰ المرأة أن تقرأ كتاب العهد الجديد ـ الإنجيل ـ!!

ـ عقد الفرنسيون مؤتمراً عام (٥٨٦ م) قرروا فيه : إن المرأة إنسان خُلق لخدمة الرجل فقط!!

ـ ذكر العقاد (عباس محمود) في كتابه عبقرية محمد ﷺ ص ١٢٨ :

أن المرأة بيعت في أسواق لندن (بشلنين) عام ١٧٩٠ م لأنها ثقلت بتكاليفها علىٰ الكنيسة التي كانت تأويها!!

وذكر أيضاً ، أن المرأة المسيحية بقيت إلىٰ سنة ١٨٨٢ م محرومة من حقها الكامل في ملك العقارات وحرية المقاضاة ، كما كان تعلّم المرأة سبة تشمئز منها النساء قبل الرجال ، وعندما كانت (اليصابات بلاكويل) تتعلم في جنيف عام ١٨٤٩ م ـ وهي أول طبيبة في العالم ـ كانت النسوة المقيمات معها يقاطعنها ويأبين أن يكلمنها ويزوين ذيولهن من طريقها احتقاراً لها ، كأنهن متحرزات من نجاسة ، ولما اجتهد بعض الرجال في إقامة معهد يعلم النساء الطب بمدينة فيلادلفيا الأمريكية أعلنت الجماعة الطبية بالمدينة أنها تصادر كل طبيب يقبل التعلم بهذا المعهد وتصادر كل من يستشير أولئك الأطباء!!

ـ ويقول (سان يونافنتور) لتلاميذه : إذا رأيتم المرأة فلا تحسبوا أنكم ترون كائناً بشرياً ولا كائناً وحشياً ، وإنما الذي ترونه هو الشيطان بذاته ، والذي تسمعونه هو فحيح الأفعىٰ!!

ـ غالىٰ بعض المسيحيين فجرّدوا المرأة من العقل ، وإنما تفكيرها هو تفتّق الغريزة عن مطلبها وكفايتها .

قال (ستاكلمين) وهو من أهالي الإسكندرية : العقل أمانة عند الرجال لا يلحقه أي خطأ و عيب ، ولكن التفكير بطبيعة المرأة شيء مخجل ومخز حقاً!!

ـ ويقول (ترتولين المقدس) للنساء : هل تعلمين أن كل واحدة منكن حواء ، لذلك يستمر إلىٰ اليوم توبيخ الله لكنّ ولجنسكن عامة ، وهذا ما يسمىٰ في المسيحية لعنة حواء الأبدية ! !

الفصل السادس

المرأة في العصر الجاهلي

انقسم الباحثون إلىٰ قسمسن :

القسم الأول : رأىٰ أن المرأة قد احتلت مكانة سامقة في العصر الجاهلي ، وذلك من خلال أنها كانت الوتر الحساس إلىٰ قلب الرجل العربي ، لذلك نراه يبدأ قصائده بذكر المرأة وتمجيدها ويفاخر بحمايتها وصونها ، من ذلك مثلاً معلقة امرىء القيس المشهورة والتي مطلعها :

قفا نبك من ذكرىٰ حبيب ومنزل بسقط اللوىٰ بين الدخول فحومل
أفاطم مهلاً بعض هذا التدلل وإن كنت قد أزمعت هجري فأجمل
أغـرك منـي أن حبـك قـاتلـي وأنك مهما تأمري القلب يفعل

ومن ذلك قول عنترة العبسي يخاطب زوجته عبلة :

ولقـد ذكـرتـك والـرمـاح لـواقـح مني وبيض الهند تقطر من دمي
فـوددت تقبيـل السيـوف لأنهـا لمعـت كبـارق ثغـرك المتبسـم

إلىٰ أن يقول :

يا عبل لا أخشىٰ الحمام وإنما أخشىٰ علىٰ عينيك وقت بكاك

ويستدل أصحاب هذا الرأي علىٰ رأيهم هذا ، بأن غالبية الحروب التي نشبت في العصر الجاهلي كانت دفاعاً عن المرأة .

فمعركة (ذي قار) التي قامت بين الفرس والعرب وكانت نتيجتها انتصار العرب علىٰ الفرس ، إنما كان سببها الدفاع عن كرامة امرأة ، وذلك حين رفض النعمان بن المنذر تزويج ابنته لكسرىٰ أَبرويز ملك الفرس ، فعدّ كسرىٰ هذا الرفض إهانة له ولملكه!!

كذلك استدلوا علىٰ رأيهم هذا : بأن العرب كانوا يسمون أصنامهم بأسماء الإناث ، وذلك من باب إعلاء شأن المرأة .

وسردوا أحداثاً تدل علىٰ مكانة المرأة في الجاهلية منها : أن عصمة كثيرات من نساء الجاهلية كانت في أيديهن ، فإذا ما ضار إحداهن زوجها طلقته!!

وأن المرأة خُيّرت في زواجها ، بل كانت تختار زوجها وتُزوّج نفسها ، كما فعلت (ماويّة) بنت عفزر وهي من بنات أحد ملوك اليمن إذ وازنت بين خاطبيها الثلاثة : النابغة الذبياني وحاتم الطائي ، ورجل من البنيت . . كذلك فقد استشار والد الخنساء ابنته حينما خطبها دريد بن الصمة ، فرفضت مؤثرة بني عمها ، ولما أراد أخوها معاوية أن يكرهها ـ وكان صديق دريد وصخر غائب في غزوة ـ قالت :

تباكرني حميدة كل يوم ... بما يُولي معاوية بن عمرو
فإلا أُعط من نفسي نصيباً ... فقد أودىٰ الزمان إذاً بصخر
أتكرهني ـ هُبلتَ ـ علىٰ دريد ... وقد أحرمت سيد آل بدر
معاذ الله يرضعني[1] حبركىٰ[2] ... قصير الشِّبْر[3] من جُشَمَ بن بكر[4]

---

(١) أي : يتزوجني .
(٢) أي : قصير الرجلين أو ضعيفهما .
(٣) أي : الحَظْو أو الخير أو العطاء .
(٤) الأمالي : ٢/ ١٦١ ، والأغاني : ٩/ ١١ .

وكان العربي يستمع إلىٰ مشورة امرأته ويطبقها ، من ذلك ما رواه صاحب الأغاني ، أن الحارث بن عوف خطب بُهيسة بنت أوس بن حارثة الطائي ، ولما همَّ بها قالت : أتفرغ لنكاح النساء والعرب تتقاتل ؟ وكان ذلك في أيام حرب عبس وذبيان ، فقال لها : فيكون ماذا ؟ قالت : اخرج إلىٰ هؤلاء القوم فأصلح بينهم ، فخرج هو وهرم بن سنان فأصلحا بين القوم ، وحملا عنهم الديات فانصرفا بأجمل الذكر ، وأشاد بهما زهير بن أبي سلمىٰ[1] .

وكان للزوج مكانة مرموقة عند زوجته ، فكانت تخاف عليه من القتل ، وهذا ما سجله عروة بن الورد بقوله :

أرىٰ أم حسان الغداة تلومني ... تخوفني الأعداء والنفس أخوف
تقول سُليمىٰ لو أقمت لسرّنا ... ولم تدر أني للمقام أطوّف
لعل الذي خوفتنا من أمامنا ... يصادفه في أهله المتخلف[2]

وكانت تحرص علىٰ ماله ، وكانت وفيَّة له : حيث تذكرّه بأنها تعاف الزواج بعده وتذكره بالخير ، وكانت لتتفجع علىٰ زوجها إذا ما أتاها خبر موته ، وكانت تحمسُّ أخوتها للأخذ بالثأر لزوجها . . .

وأما القسم الثاني فقالوا : إن المرأة في ذلك العهد كانت مهضومة الحق ، لا ترث شيئاً إنما تُورَّثُ كأنها متاع أو ماشية ، وتوأد وهي طفلة ، وتسبىٰ في الحروب . . . لذلك كره العرب إنجاب البنات واعتبروه سبيلاً إلىٰ المذلة والذل ، وللتاريخ في ذلك أحاديث طويلة ، من ذلك أن أبا حمزة الضبي هجر خيمة امرأته حين ولدت بنتاً ، وراح يبيت عند جيرانه ،

---

(١) الأغاني : ٢/ ١٤١ ، والمستطرف للأبشيهي : ٢/ ٢٢٢ .
(٢) ديوان عروة بن الورد : ص ٢٣ .

لكنه ذات يومٍ وهو يمرّ من أمام خبائها ، سمعها تغني لابنتها وتقول :

ما لأبي حمزة لا يأتينا ... يظل في البيت الذي يلينا
غضبان ألا نلد البنينا ... تالله ما ذلك في أيدينا
فنحن كالأرض لزارعينا ... ننبت ما قد يوضع فينا

عندها عاد إلىٰ رشده ، وولج الخباء ، فقبّل رأس زوجته ، وقبّل ابنته[1] .

وهذا البغض ـ عند الجاهليين ـ للبنات دفعهم إلىٰ الوأد!!

إنه الأب الذي يحمل ابنته وهي صغيرة متعلقة بأثوابه لا تدري إلىٰ أين يقتادها ، ويصل إلىٰ مكان خارج القرية يحفر حفرة في التراب ، والبنت تلعب بذلك التراب ، ثم يواريها الثرىٰ ـ وهي حيّة ـ تنادي وتصرخ وتستغيث. . . لكن دموع والدها قد تحجّرت ، وقلبه قد قُدَّ من صخر ، والرحمة لا تعرف إلىٰ قلبه سبيلاً. . . ألم يسأل واحد منهم : ما ذنب هذه الصغيرة كي توضع في هذا القبر وهي حية ؟!. . . وما الذي جَنَتْهُ يداها ؟!

قالوا : إن السبب هو الفقر ، وقالوا : إن السبب هو التخفف من الأولاد ، وقالوا : إن السبب في ذلك هو الغيرة علىٰ البنات أن يُسبين أو يزوجن بغير أكفاء ، و. . . . لكن هل أي سبب من تلك الأسباب مقنع لهذا العمل البشع ؟!

لنقرأ هذ القصة : ذكر قيس بن عاصم لرسول الله ﷺ أن امرأته ولدت بنتاً في سفره ، فدفعتها إلىٰ أخوالها ، فلما قدم من سفره أخبرته أنها ولدت ولداً ميتاً ، ومضت سنون حتىٰ كبرت الصبية ويفعت ، فزارت أمها

---

(١) البيان والتبيين : ١/١٨٦ .

يوماً ، فرآها قيس فأعجبته ، فسأل عنها ، فبكت أمها وقالت له : هذه ابنتك ، وقصت عليه حيلتها ، قال : فأمسكت حتىٰ اشتغلت عنها ، ثم أخرجتها فحفرت لها حفيرة ، فجعلتها فيها ، وجعلت أقذف عليها التراب ، وهي تقول : يا أبت أمغطيٌّ أنت بالتراب ، أتاركي أنت وحدي ومنصرف عني ؟!

وجعلت أقذف عليها التراب حتىٰ واريتها وانقطع صوتها ، فما رحمت أحداً ممن واريته غيرها ، فدمعت عينا النبي ﷺ وقال : إن هذه لقسوة ، وإن من لم يرحم لا يرحم[1] .

إنها الجاهلية الجهلاء ، ولذلك أتىٰ الإسلام ليهدم كل المظاهر السيئة ، وليعترف بما كان حسناً ـ وهو النذر اليسير ـ لذلك نجد أن الشريعة الإسلامية قد نددت بوأد البنات ، وذلك ضمن علامات استفهام واستنكار وتعجب .

﴿ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴾ [التكوير : ٨ـ٩] .

ولم تدع الشريعة أي مجال للتبرير ، فأيّاً كان السبب للوأد فهو مرفوض :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ ﴾ [الإسراء : ٣١] .

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ ﴾

[الأنعام : ١٥١] .

وكذلك فقد نددت الشريعة الإسلامية وحرمت زواج الابن بامرأة أبيه ـ والتي يرثها بعد موته ـ وأسمىٰ ذلك بالزواج المقت :

---

(١) الأغاني : ١٢/١٤٣ .

﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [النساء : ٢٢] .

ونهىٰ الإسلام عن إكراه الفتيات علىٰ البغاء :

﴿ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور : ٣٣] .

إلىٰ جانب ذلك فقد أعطاها الحق في الميراث ؛

﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴾ [النساء : ٧] .

إلىٰ غير ذلك من الأمور التي سنأتي علىٰ بيانها وشرحها عند الحديث عن مكانة المرأة في الإسلام .

❊ ❊ ❊